العرب
السبت 2019/09/14
السنة 42 العدد 11467

مذكرات «الفتاة الأخيرة» الناجية من الموت

نادية مراد تروي حكايتها وحكاية شعبها المنتهك

امرأة تحكي معاناة شعبها (لوحة للفنانة هيلدا حياري)

لا تختلف نادية مراد الناجية من أهوال تنظيم داعش الدامية، عن ملالا يوسف تلك الفتاة الناجية أيضا من تفجير حافلتها المدرسية في بلدتها بباكستان. الفتاتان ضحيتان لأفكار الجماعات الإرهابية، وإن كان الفارق بين الحادثتين عاما واحدا، لكن أداة الفعل واحدة. وبعد نجاتهما قررتا أن ترويا لنا جزءا من المأساة عن قرب.

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

كتبت ملالا يوسف "أنا ملالا" في نوع من التحدي، وفازت بجائزة نوبل، وكتبت نادية مراد "الفتاة الأخيرة: قصتي مع الأسر، ومعركتي ضد تنظيم داعش"، رجاء منها في أن تكون قربانا تفدى به كل بنات جلدتها.

> الكتاب يسرد مشاهد مؤلمة تفضح ما تعرض له الإيزيديون من ظلم وتنكيل، لكنها مليئة بالصور والخيالات العذبة

تنبع أهمية مذكرات نادية مراد المكوّنة من ثلاثة أقسام؛ الأوّل يتحدث عن حياتها في قرية كوجو الإيزيدية، والثاني عن أسْرها عند داعش وأهوال الأسر والاغتصاب، والثالث يبدأ بمغامرة الهروب من الموصل إلى كردستان بمساعدة أسرة سنية لجأت إليها بعدما هربت من سيدها، في رحلة وصولها إلى ألمانيا؛ من كونها شهادة من الداخل، وأنها أيضا تتجاوز الذاتي أو الفردي إلى العام (الجمعي)، فتمزج بين مأساة وطنها مع مأساتها الخاصة، فلا تجعل من ذاتها وما حدث لها بؤرة الحدث الرئيسية، بل تتراجع ذاتها كثيرا لحساب ما وقع لوطنها، وكأن الفرصة سنحت لها، لتسلّط الضوء على ما أصاب قومها من تهميش ونبذ وإقصاء، وسعي إلى محو هويتهم، وتجريدهم من ثقافتهم وتراثهم.

تفكيك الأكاذيب

في هذه المذكرات، الصادرة عن دار التنوير 2019، وبترجمة نادين نصرالله، وبتقديم موجز لحماية حقوق الإنسان أمل كلوني، ترصد لنا نادية مراد جزءا مهمّا عن تنظيم داعش. كما تتخذ من سردها وسيلة لتصويب الأخطاء والافتراءات عن الإيزيديين خاصة في ما يشاع عن أنهم يعبدون الشيطان، ومن ثم تأتي سيرتها وكأنها ليست دفاعا عن نفسها، التي نجت من الإرهابيين، وإنما دفاعا عن هويتها، وتمسكا بها مثلما تمسكت بفرصة النجاة والهروب من أيدي التنظيم، بتفكيك الأساطير التي راجت عن قومها، وعن كون ديانتهم الإيزيدية ليست حقيقية، وعن بعض العادات الخاصة بهم مثل عدم الاستحمام يوم الأربعاء، وعدم أكل الخس، وارتداء اللون الأزرق. وكأنها تقول لنا ها هم الإيزيديون مسالمون، لا يملكون أي طموح للاستحواذ على المزيد من الأراضي أو السلطة، أو حتى السعي لضم الآخرين إلى الديانة الإيزيدية.

كما تستعرض تاريخ القهر والإقصاء الذي تعرضت له طائفتها الإيزيدية، بسبب معتقداتها الدينيّة، سواء من العرب السنة أو الأكراد السنة المجاورين لبني قومها، أو من نظام البعث نفسه، فالكل يسعى إلى استمالتهم إليه، وخاصة نظام البعث الذي رغب في سلخهم عن الأكراد، ليكونوا له عونا في حربه ضدهم. لكن مشكلة الإيزيديين تتفاقم مع دخول الأميركيين إلى العراق، فبدأت القرى المجاورة لهم تأوي الإرهابيين الذين أدانوا المسيحيين وغير المسلمين السنة، واعتبروا الإيزيديين كفارا.

حالة الإقصاء لم تكن فقط على يد داعش، بل تسرد الرّاوية الكثير من المآسي على هذا التاريخ المُولع بالإقصاء، باعتبارهم "الغير" خاصة في التعليم الذي لم يأتِ على ذكر أي شيء عنهم، بل كان يُفرض عليهم باللغة العربية، وأي ديانة يجب أن تتبع. ومن ثم كانت هذه فرصة لتكون صوتا لقومها المقهورين، وهو ما آلت على نفسها القيام به. فهي لم تفصل مأساتها عن مأساة قومها وجماعتها، اللافت أنها قدمت مأساتهم على مأساتها.

ينتمي النص إلى جنس المذكرات، فكما هو واضح تركز الساردة على الأحداث المحيطة بها، وقد تصل إلى توجيه النقد إلى سياسات التخاذل التي رأتها. ومع هذا فهي تقترب بدرجة كبيرة إلى السيرة الذاتية حيث تلتصق الساردة بأناتها.

إضافة إلى ما توفره السيرة من مساحات بوح أكبر مما تستوعبها المذكرات. وهو متحقق هنا في الكثير من المواضع، حيث تستعرض في البداية حياتها في قرية كوجو الكردية، وطبيعتها الجغرافية، وتكوين سكّانها، واهتماماتها التي كانت قائمة على الرعي، باستثناء الشباب الذي كان يتنقل إلى القرى السنية القريبة من أجل العمل في مهن مختلفة.

وتسرد مراد جزءا مهمّا عن أسرتها، وزواج أمها من أبيها بعد وفاة زوجته، وتقدم صورة ناصعة لأبيها الذي كان مشهودا له بالشجاعة والقوة والإباء بين عشيرته؛ كاشفة عن الكثير من العادات والتقاليد، التي يختص بها الإيزيديون سواء في الزواج أو في ممارسة الطقوس الدينية، كالصلاة وأوقاتها، وكيفية أدائها، أو أسماء الأعياد، وأيضا طقوس الموت التي تأخذ خصوصية عندهم، فالحياة بعد الموت عندهم مكان للمحاسبة، حيث قد يُعاني الأموات كما البشر.

الصوت الغالب هو الأنا الساردة العائدة على نادية مراد، فتسرد عن نفسها وعما شاهدته من وقائع، إلا أن بعض المشاهد لم تكن حاضرة فيها، ومع هذا تقوم بالروي -أيضا- بالأنا، وإن كانت تستعير أو تتقمص صوت الشاهد الذي حكى الحكاية لها، مثل ما حدث لأخيها سعيد وصديقه علي وقد فرا من مجزرة القتل، وبالمثل ما دار مع أخيها غير الشقيق خالد. تستحضر المشاهد المروية لها، وتقوم بعملية تذويت السرد، وتروي وكأنها شاهدة على ما حدث.

محاكمة المتخاذلين

لا يمكن لأي كتابة حول العراق أن تتغافل عن تأثيرات السياسة على الحياة العادية، فتسرد نادية عن حالة الظلم التي عانى منها الإيزيديون والأكراد من نظام البعث، ومن ثم جاء اجتياح بغداد عام 2003 بمثابة التحرير لهما، وأثر هذا على الأكراد، فقد كان هذا الاجتياح بداية لتحولهم من قرى صغيرة هشة إلى مدن عصرية كبرى تعج بالفنادق ومكاتب شركات النفط. كما تكشف عن أثر المساعدات الأميركية في تحويل سنجار إلى مركز كردي تابع لكردستان. وأيضا الخيانات التي حدثت من السنة الذين سلّموهم إلى داعش، والأكراد الذين خلفوا وعدهم، وهربوا إلى مناطق آمنة مع دخول تنظيم داعش إلى سنجار التي احتلها دون مقاومة تذكر، والأميركان الذين خذلوهم ولم يأتوا لنجدتهم.

مع بداية الفصل الخامس تكون قوات داعش قد حطت رحالها في جبل سنجار، فتأخذنا الساردة عبر رحلة موجعة تسرد من خلالها مخاوف الأهل التي تنازعت بين الهروب والبقاء، وممارسات رجالات داعش القهرية لإجبار الإيزيديين على دخول الإسلام أو قتلهم. وحصارهم في منازلهم حتى صارت أشبه بالسجن لهم، لا يستطيعون الخروج أو حتى إظهار أنهم بداخلها. وفي نفس الوقت كانوا منهمكين بمصادرة المنازل الإيزيدية، ونهب ما بها من مجوهرات وسيارات وهواتف خلوية. أما النساء، فكانوا يوزعونهن على المقاتلين في العراق وسوريا كسبايا. كما قتلوا الآلاف من الإيزيديين وألقوا بجثثهم في مقابر جماعية.

لا تكف الرّاوية عن لوم كل المتخاذلين، وإن كان صبّتْ جَام غضبها على الستة العرب، التي كانت ترى أن في إمكانهم مساعدتهم. كما تكشف وهي تسرد أفعال الداعشيين ضد الرجال والنساء، عن نقيض ما يروجونه عن أنفسهم، فهم لا همّ لهم إلا جمع المال والذهب من الرجال والنساء. كما أنها تعري أكذوبة التدين التي يخفون خلفها شياطين من الإنس، سواء في نظرتهم الشبقية إلى المرأة، وتلذذهم في التعذيب بكافة الأشكال التي تجعل من الضحية بمثابة الذليل.

تسرد مشاهد مؤلمة، مليئة بالصور والخيالات العذبة، والتي استطاعت المترجمة أن تنقلها في رقة وسلاسة، بل أوصافها لا تقف عند الخارج وتصوير الحياة في جوكو أو الطقوس المختلفة للإيزيديين، وإنما تتجاوز ذلك إلى دخولها في عمق النفس، وقدرتها على تصوير الانفعالات والخيبات والتعلق بالآمال وغيرها من أحاسيس مختلفة. كما تنقل لنا دقائق ما حدث معهن منذ أن دخل داعش إلى قريتها، وقتل إخوتها أمامها، ثم اصطحبها مع باقي النساء إلى الموصل، ليبدأ فصل مُفزّز عن الاغتصاب والسّادية في التعامل مع النساء، ببيعهن كرقيق وسبايا لمن يدفع في سوق النخاسة، في مشاهد تعود بنا إلى عهود الظلام والجاهلية. وصولا إلى الزيجات التي كانت تتمّ في قاعات المحكمة، والتي وصفتها بأنها أشبه بالاغتيال البطيء للفتيات الإيزيديات.

المستشرقون الصينيون قادمون

حسن الوزاني
كاتب مغربي

يبدو مدهشا أن تضع الصين الثقافةَ والمعرفة على رأس قاطرتها الخاصة بمبادرة الحزام والطريق، التي يراد لها أن تصل بالصين إلى العالم، بعيدا عن منطق القوة والسلاح وليّ الأذرع. وهي المبادرة التي تعيد إحياء طريق الحرير القديم، والذي كان يعبر آسيا وأوروبا. لتكون بذلك المبادرة الأكبر على مستوى التاريخ، سواء في ما يخص البنيات التي يفترض إطلاقها في إطارها أو من حيث حجم الاستثمارات المعبأة والتي تقتضيها مشاريع المبادرة.

ولعل الاهتمام بالمكون الثقافي ليس جديدا على مستوى الصين. إذ أن احترام ثقافة الآخر والبحث عنها والبحث فيها يشكل مكونا تاريخيا يطبع هوية البلد. ولعل ذلك ما يميز حركة الاستشراق الصيني الذي اختار طريق القراءة العاشقة للثقافة العربية والإسلامية، الباحثة عن مناطق النور داخلها، وذلك بشكل معاكس للاستشراق الغربي، الذي تختلط داخله النيات السيئة بالنيات الحسنة، ودوافع معرفة العالم العربي بهدف توفير الظروف المناسبة للاستعمار السلس الذي لا يستغني في نهاية المطاف عن قوة السلاح، بالرغبة في التعرف على هذا العالم المدهش والغامض.

وإن كان خبير كبير عارف بخبايا الاستشراق الغربي، وهو إدوارد سعيد يقر بأنه لا يوجد ما قد يسمى استشراقا موضوعيا أو إيجابيا، باعتبار أن كل ما يفعل وكل ما يقال عن أنه موضوعي له ارتباط بالمصلحة فقط.

بل إن تصورات إدوارد سعيد ستجد أصداءها الخاصة داخل الصين نفسها، وذلك على مستوى بلورة مدرسة استشراقية صينية، تنتصر، على مستوى أدواتها وطرقها في التحليل، للعالم الثالث وللشرق، ضد هيمنة التصورات الاستعمارية. وهو ما تم بشكل أساس، كما تشير إلى ذلك الباحثة الصينية يونغ زانغ، من خلال الباحثين الطلبة الصينيين بالولايات المتحدة الأميركية، وعلى رأسهم الباحث زهان كوان، الذي كان قد نشر العديد من الأبحاث العلمية في هذا الإطار، ومن بينها دراسته "الآخرون في أعين الأوروبيين والأميركيين"، بالإضافة إلى بحثه الهام "الأنا والآخر، حول استشراق إدوارد سعيد".

وأجد شخصيا أن تنازل المستشرقين الصينيين عن أسمائهم الشخصية لصالح اختيار أسماء عربية يشكل العنوان الكبير لهذه الحركة الاستشراقية، كتعبير عن التماهي مع الثقافة العربية. ولا يهم الأمر فقط المستشرقين الباحثين في الثقافة العربية، بل جرت العادة أن يحمل أي طالب صيني اختار دراسة اللغة العربية اسما عربيا موازيا لاسمه الصيني.

وبخلاف الاستشراق الغربي الذي وضع أعينه على الثقافة العربية بشكل متأخر، لا يبدو حضور اللغة العربية والاهتمام بها في الصين أمرا جديدا. إذ أن تعرف الصينيين على اللغة العربية يعود إلى ما قبل ألفي سنة، كما يؤكد ذلك زينغ رونغ، مع إيفاد تشانغ تشيان لعدد من الرسل إلى بلاد العرب، وكانت الصين حينها تحت حكم أسرة هانغ الملكية، بينما ستنتشر اللغة العربية بشكل أكبر في الصين مع دخول الإسلام. وهو الأمر الذي يصفه بشكل دقيق، على سبيل المثال، ابن بطوطة في رحلته "تحفة النظار في غرائب الأبصار"، حيث كتب "في كل مدينة من مدن الصين حي خاص للمسلمين ينفردون فيه بسكناهم، ولهم فيها مساجد لإقامة الجمعة وسواها، وهم معظمون ومحترمون".

ومع تزايد المسلمين، سيتم إطلاق نظام التعليم المسجدي الخاص باللغة العربية، وكان وراء الدعوة إلى ذلك، حسب زينغ رونغ، العالم الإسلامي المشهور خو دينغتشو، الذي عاش في القرن السادس عشر. وذلك قبل أن يتم تطوير تعليم اللغات الأجنبية وعلى رأسها اللغة العربية في العصر الحديث، بفضل عدد من كبار المستعربين، وعلى رأسهم عبدالرحمن نا تشونغ، الذي يعتبر أول من علم اللغة العربية داخل الجامعات الصينية، و محمد ماكين، الذي كان قد ترجم القرآن الكريم إلى الصينية، وأيضا حوار كونفوشيوس إلى العربية.

أما تعدد القوميات داخل الصين، ومن بينها القوميات المسلمة، فستكون وراء حركة استشراقية داخلية، كما تسميها الباحثة الفرنسية إليزابيت أليس. وهي الحركة التي تسعى إلى فهم ودراسة ثقافات الأقليات المنتمية إلى المجتمع الصيني.

> الاستشراق الصيني عكس الاستشراق الغربي، فقد اختار طريق القراءة العاشقة للثقافة العربية والإسلامية والباحثة عن مناطق النور

في سنة ألف وثلاثمئة وأربع وعشرين، خرج رجل من مدينة طنجة المغربية، وكان في الثانية والعشرين من عمره، قاصدا الحج في رحلة كان يُقدر لها أن تستمر حوالي سبعة أشهر، فعاد إلى بلده بعد حوالي ثلاثين سنة. ولم يكن هذا الرجل سوى الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي انتهت به رحلته إلى الصين سنة ألف وثلاثمئة وست وأربعين، قبل أن يعود إلى المغرب. وأما رحلته فتعتبر الأطول قبل أن يظهر النقل البخاري.

ويصف ابن بطوطة في نص رحلته المذهلة "تحفة النظار في غرائب الأبصار"، المدن والأماكن الصينية خلال العهد الوسيط بدقة وبتفاصيلها.

وسيغادر ابن بطوطة الصين بعد اشتعال بعض الاضطرابات، آملا في العودة إليها، غير أنه لم يكتب له ذلك. بينما ستتأخر الرحلة الثانية التي قام بها رحالة عربي آخر إلى الصين، والتي تم تدوينها في نهاية الستينات من القرن الماضي. وقد قامت بها فتاة سودانية، اسمها خديجة صفوت. وقد صدرت الرحلة، تحت عنوان "رحلة فتاة صينية إلى الصين"، عن مركز ارتياد الآفاق.

بعد مرور حوالي سبعة قرون على رحلة ابن بطوطة، يبدو أن الصينيين تفرغوا لإعادة بناء ثقافتهم واقتصادهم، بينما تفرغ العرب لتهديم ما بنوه سابقا. وحدها حكاية مذهلة لرحالة مذهل ما زالت تذكرنا بتجربة خارقة على مستوى اللقاء الإنساني.

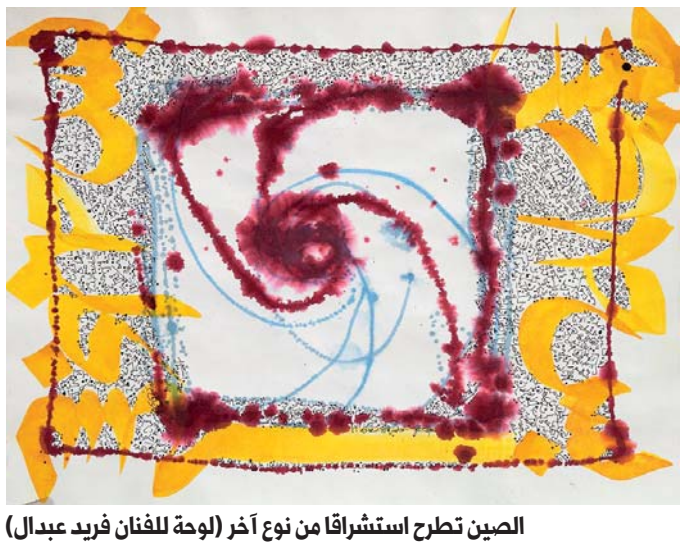

الصين تطرح استشراقا من نوع آخر (لوحة للفنان فريد عبدال)